خطاب التحدي في صدر سورة الملك (خلق السماء) - دراسة في الأسلوب

فطيم أحمد دناور

جامعة الطائف- المملكة العربية السعودية
ftaimdanawer@gmail.com

الملخص:

يتفرد الخطاب القرآني بأسلوب ذي خصائص لفظية وسياقية ومعنوية، تجعل منه خطاباً معجزاً يمتاز عن الأسلوب البشري. هذا ما عملت الدراسة على الوصول إليه. فتناولته في صدر سورة "الملك" تناولاً وصفياً تحليلياً يظهر مدى تماسكه وقوته، ولما كان موقف التحدي موقفاً متكاملًا؛ ناقشت الدراسة مراحلها في الآيات من البداية إلى الفحوى وصولاً إلى النهاية، فوقفت على التقديم للخطاب أسلوباً وموضوعاً، وأثر ذلك على فحواه، ثم انتقلت إلى الفحوى، فناقشت فيه صلابه الخطاب، وثقته، وموضوعه، وتأثيره على نفس المخاطب وفكره. وفي الخاتمة التحسينية للموقف، ناقشت الدراسة كماليات الصنع من تزيين وحماية. وبما أن موضوع (خلق السماء) من أبرز مباحث علم الفلك، اقتضى ذلك عمل مقارنة مع معطيات هذا العلم دون المساس بأدبية الخطاب، وخلصت الدراسة إلى أن مضمون الخطاب الأدبي في هذه الآيات لا يتعارض مع معطيات علم الفلك.

الكلمات المفتاحية: التحدي؛ خطاب؛ الملك؛ السماوات؛ مصابيح؛ أسلوب.

المقدمة:

إن الحمد لله وحده مالك الملك، نحمده ونستعينه ونستغفره ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

لما كان النص القرآني هو النص اللغوي المعجز نظاماً وبلاغةً وأسلوباً، وجب أن يكون المرجع الأول في أي نهضة فكرية، وذلك بدراسة نصوصه والبناء عليها وعلى نصوص الشعر العربي، وقد يكون عباس المناصرة قد وضع يده على المشكلة عندما رأى أن سبب إهمال بحث قضايا الأدب في منجزها الفقهي الضخم، وعدم إفراد أبواب خاصة له كما فعلت لغیره، مع أن الله خاطبها بأدواته وأساليبه، يرجع إلى غياب السؤال عن حكمة الخطاب الأدبي في القرآن الكريم عند فقهاءنا، ما أدى إلى إهمال قضية الأدب في فقههم، فأوجد ذلك فراغاً فقهياً استغله تلاميذ الفلسفة اليونانية في العصر العباسي. (المناصرة، ع، ٢٠٠٧م)

ولعل ما نقوم به جزء من دراسة قضايا الأدب من القرآن الكريم؛ فهذه أي أمة تبدأ بلغتها، ونهضة اللغة تبدأ بدراسة مصادرها الرئيسية. ومن مصادرها تستخلص نظرياتها.

ويقوم موضوع البحث وحدوده على خطاب التحدي في سورة الملك، فأساليب الخطاب في القرآن الكريم متنوعة بين اللين والشدّة، وبين الترغيب والترهيب، حسبما يقتضي المقام، ومنها خطاب التحدي الذي يتميز بالثقة والشدّة، ثم عرض الحجة إظهاراً للغلبة، ولهذا الخطاب في القرآن الكريم أوجه ومجالات متعددة، ومتفاوتة في الشدّة، سيقف البحث على واحدة من أقواها لغة، وأدمغها حجة، وأظهرها غلبة؛ وهو التحدي بخلق السماء، تامة متناسقة سليمة من كل عيب، يمكن أن يصل إليه الإنسان بالعين المجردة، أو بما يسر الله له من الدراسات والاكتشافات. واقتصر البحث على الآيات (١-٥)، وهي التي شكلت موقف تحد متكاملاً؛ من حيث التقديم للموضوع، ثم الخوض فيه، ثم دعم الموقف بالحجج.

ولعل أهمية البحث من أهمية النص، وهو القرآن الكريم، وضرورة دراسته دراسة تفيد معطيات العلوم الإنسانية، للعمل على قيام نهضة أدبية إبداعاً وتنظيراً، ومن هنا سعى البحث إلى تحقيق هدفين:

الأول: دراسة القرآن الكريم في ضوء النظريات النقدية والأسلوبية الحديثة، مع المحافظة على الإرث الفكري والفهم التاريخي لدراسات القرآن الكريم، والخروج من عباءة علوم البلاغة إلى فضاءات النص القرآني، وما يحتويه من ظواهر أسلوبية.

وأما الثاني: رفد الدراسات الأدبية بما يدعم الأدب ونظريته. ففي الوقوف على جزئيات الخطاب القرآني ونظمها ضمن سياق معين. ما قد يفتح باباً، أو يوسع مدخلاً إلى هذا المجال.

- وأما الدراسات السابقة فأهمها مباحث إعجاز القرآن الكريم التي يضيق المقام عن إحصائها نذكر منها:
- ما جمعه محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام في كتاب "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن" (١٩٧٦م): وهي "بيان إعجاز القرآن" (للخطابي-٢٨٨هـ) و "النكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن (الرماني-٣٨٤هـ) و "الرسالة الشافية" لعبد القاهر (الجرجاني-٤٧١هـ). وعرضت الرسائل الثلاث تفرد القرآن الكريم بفضائل البلاغة العربية، وتربعه على ذروتها، وبينت وجوه إعجاز القرآن البلاغية، وأكدت الرسائل أن عجز العرب البلاغي والبياني هو ما منعهم من تحدي القرآن.
 - كتاب محمد عبد الله دراز: "النبا العظيم" (١٩٩٧م) تناول فيه المؤلف البيان القرآني وخصائصه التي امتاز بها عن سائر الكلام، ورتب دراسته على أربع مستويات: مستوى القطعة، ومستوى السورة، ومستوى ما بين بعض السور وبعض، ثم مستوى القرآن كاملاً، فأرى أنه في المستوى الأول تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها فهو يجمع بين القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى والبيان والإجمال. وفي المستوى الثاني رأى أن القرآن جمع بين الكثرة والوحدة رغم نزوله منجماً، وفي المستوى الرابع يرى أن القرآن يتعدد سوره يتبع نهجاً ربانياً وفق تقدير محكم وتديير مبرم، وهو ما ينطبق على القرآن الكريم كاملاً.
 - دراسة محدثة لرياض محمود جابر قاسم بعنوان: "الظواهر البلاغية في سورة الملك" (٢٠١٥) تناولت الظواهر البلاغية في هذه السورة في ثلاث قضايا رئيسية: الأساليب الخبرية، والأساليب الإنشائية، والصور البيانية، والأعراض البلاغية لكل منها مبينة الإعجاز البلاغي وخصوصية استعمال هذه الظواهر في القرآن الكريم.
 - ولعل هذه الأبحاث. وغيرها من كتب الإعجاز والبلاغة والنقد وعلم الأسلوب قديمها وحديثها مهد طريق هذه الدراسة، وإن سلكت مسلكاً مغايراً، مفيدة من معطيات الدراسات الأسلوبية.
 - أما خطة الدراسة فبنيت على أربعة مباحث، مهد لها بمقدمة وتمهيد، وتقفوها خاتمة، وثبت للمراجع:
 - مقدمة
 - تمهيد: أسلوب التحدي في القرآن الكريم
 - المبحث الأول: التقديم للخطاب
 - المبحث الثاني: صلب الخطاب
 - المبحث الثالث: دعم الخطاب
 - المبحث الرابع: التحقيق العلمي
 - الخاتمة
 - قائمة المصادر والمراجع.
- وأما المقدمة ففيها أهمية البحث ودوافعه، وما سبقه من دراسات، وهيكله، والمنهج الذي اتبعته، والصعوبات، والتوصية. تبعها تمهيد وقف على أسلوب التحدي عامة في القرآن الكريم، وطرقه، ودرجاته.
- ثم تناول المبحث الأول مقدمة التحدي، فناقش أهميتها في التمهيد لعرض الموضوع، والأسلوب المتبع، ودقة الكلمات التي استعملت فيها، وسبب اختيار هذا المجال ميداناً للتحدي.
- ثم بُني (المبحث الثاني) على نتائج المبحث الأول، فناقش موضوع التحدي، وكيفيته، وقوته وطريقة المتحدي -سبحانه- في إدارة الخطاب، بترك الحبل للخصم على غاربه كي يجرب كل ما لديه، وأثر ذلك كله على الخصم قبل هزيمته وتسليمه.
- وفي خاتمة الخطاب (المبحث الثالث) تناول البحث دعمه للحجة بالحديث عن الزينة والحماية، وكيفية انخفاض النبرة في هذه المرحلة بعد أن وصل المتحدي -وهذا محقق لا محالة- إلى الغلبة.
- وفي المبحث الرابع-عرض البحث للتحقيق العلمي فيما تناولته الآيات كي يثبت البحث ثبات التحدي رغم تطور الدراسات الفلكية، التي أثبتت سلامة السماء من الفطور، وإضاءتها بالكواكب، ثم حمايتها بواسطة تلك الكواكب. وعرض البحث هذه الحقائق عرضاً موجزاً لا يخرج به عن مساره الأدبي، ولا يحول الخطاب من خطاب أدبي إلى خطاب علمي.
- وفي الخاتمة عرضت أهم النتائج التي تم الوصول إليها في المباحث الأربع.
- أما المنهج المتبع في البحث فهو المنهج الوصفي التحليلي للظاهرة على كافة مستوياتها (اللفظة، الجملة، النص) ما يساعد على كشف أسرار هذا الأسلوب وإعجازه، وأثره على المتلقي.

ولعل الصعوبة التي واجهت البحث هي إقحام الدراسات العلمية في بحث أدبي، وخطورة ذلك على أدبية الموضوع، رغم الحاجة إلى الاستعانة بالنتائج العلمية، وتم تجاوز هذه العقبة بالأخذ بمعطيات العلم دون غلو أو خوض بالتفاصيل، مع التأكيد أن التحدي قائم وصحيح وثابت مع الدراسات العلمية أو بدونها.

وتوصي الباحثة أن تتم دراسة أساليب الخطاب القرآني وفق المناهج المعاصرة، للإفادة من هذه الأساليب من جهة ولإثبات مرونة وديمومة النص الإلهي من جهة ثانية.

ونسأل الله . سبحانه . أن يرزقنا نور البصيرة، وصدق الخطاب. والله ولي التوفيق.

تمهيد: أسلوب التحدي في القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كلام الله لعباده، يبين لهم شؤون دنياهم وأخرهم، منوعاً بين الإخبار والتقرير والخطاب، وفي الخطاب تتنوع الأساليب، فيكون أسلوب الملاينة والترغيب: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} {الحديد: ١١}، أو تقوى الله قليلاً فتضرب الأمثال: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ النَّبَاسِ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} {٢١٤}، وعندما يصير السامع على رفضه يلجأ المتحدث إلى أقوى درجات الخطاب وأعلىها نبرة، وهو التحدي: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {البقرة: ٢٣}، ففي التحدي يتم اختبار قدرة الخصم، مع توقع الغلبة مسبقاً للمبادر.

وبالوقوف على المعنى اللغوي لكلمة (تحدي) نجد: "فلان يتحدى فلاناً، أي: يباريه وينازعه الغلبة. يقال: أنا حدياك في هذا الأمر، أي: أبرز لي وجارني" (ابن منظور، م، ١٩٩٣، صفحة ٢٧٩/٣) ويرى أحمد مختار عمر أن معنى أتحدى: "تعبير يقصد به إنذار شخص بفعل شيء، مع التلميح إلى عدم قدرته عليه" (عمر، أ، ٢٠٠٨، م، صفحة ٤٦١/١). وقد اتخذ التحدي أوجهاً في القرآن الكريم، وفق نهج تدريجي: فبدأ بالتحدي بالقرآن كله، ثم بعشر سور، ثم بسورة واحدة. ولا يعقل. وال حال كذلك. أن يطرح التحدي بنظم القرآن الكريم فقط، فيكون منصباً على اللغة من حيث: الصحة، والبلاغة، وجودة النظم، وسلاسة الفاصلة، وإيجاز التعبير مع بلوغ الغاية... دون أن يشتمل اللفظ على المعنى الثابت صحته عبر الزمان والمكان، سواء بالإخبار عن قصص الماضين، أو التنبؤ بالغيبيات، أو عرض الحقائق العلمية قبل اكتشافها. يقول السيوطي معرّفًا المعجزة:

اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، وهي إما حسية وإما عقلية... ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باقٍ يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً. (السيوطي، ع، ١٩٧٤، م، الصفحات ٤-٣/٤)

ولعل هذا ينطبق على الحقائق العلمية، فهي معجزات عقلية ترى بعين البصيرة، وتبقى ما بقيت، وهي شاملة، تخاطب الإنسان من حيث هو إنسان يفكر ويعقل. ولذا امتد التحدي القرآني إلى نواحٍ علمية، تشمل خلق الإنسان ذاته، ومراحل تكوينه، والإخبار عن المستقبل، والحياة والموت... وكثير مما لا يمكن حصره في هذا المقام، ومنه التحدي في ظواهر مرئية، يتسع عدد مبصراتها فيشمل البشر جميعاً بمستوياتهم واختلافاتهم، حتى إذا سلم الجميع وقعت عليهم الحجة.

ولا يخفى أن خطاب التحدي يحتاج إلى حسن بناء، وصحة، ومن حسن بنائه تسلسله من مقدمة، ثم إلى صلب، ثم إلى الخاتمة. ومن صحته سلامة مضمونه وثبات معانيه، وهو ما اتسم به الخطاب في سورة الملك، ولذا تم تقسيم الدراسة وفق تدرج الخطاب ذاته.

أولاً: التقديم للخطاب

لعل من لطف الله لعباده مخاطبتهم بأساليب الإقناع والحجة، وعندما تعرف الغاية تفهم الطريقة؛ فالإنسان خليفة الله في أرضه، وهو المكرم عند الله، ومفضل على كثير من خلقه {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} {الإسراء: ٧٠}، ولعل هذا التكريم ناتج عن محبة الله لهذا المخلوق، ولأجلها يحرص الله تعالى - وهو أعلم بما يريد - على تبيان الطريق لهذا الإنسان كي يدرك هذا سبل الرشاد، فحرص الخطاب الإلهي على إقناعه بأولى المسلمات: وهي ربوبية الله وألوهيته، ما دأب الأنبياء - عليهم السلام - على القيام به، وأفنوا أعمارهم في إقناع أقوامهم به.

ولكن ما العبرة من التحدي بمظاهر الكون الكبيرة. كالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار. إن كانت أصغر خلائق الله دليلاً على ألوهيته وربوبيته؟

لعل في قصة إبراهيم. عليه السلام. وحواره مع النمرود الإجابة على هذا التساؤل: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا

مِنَ الْمُغْرِبِ فَهَبْتَ اللَّذِي كَفَرْنَا لَهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {البقرة: ٢٥٨}، فالذي حاج إبراهيم - كما بينت بعض التفاسير - هو نمرود أحد ملوك الأرض، دفعه تجبره إلى هذا الطغيان والكفر المغلظ، فطلب إلى إبراهيم دليلاً على وجود الرب، الذي يدعو إليه إبراهيم، فقال إبراهيم: إن الله يحيي ويميت متحدثاً بالنمرود أن يحيي ويميت، فراوغ بالإجابة، بما يوهم أنه يحيي بعد الموت، وهنا كان لا بد لإبراهيم - عليه السلام - أن يأتيه ببرهان أكبر: فأتى بمثال الشمس، وهي إحدى الظواهر الكونية الكبيرة التي لا طاقة للمخلوق بالتأثير عليها، أو التدليس في أمرها، وعلى قدر الحجة يكون الأثر، فكان موقف النمرود ليس الهزيمة والعجز والتعجب فحسب، بل هبت وهزم. (ابن كثير، إ، ١٩٩٨ م) ولهذا قد تكون الظواهر الكونية الجليلة - ما يتجاوز قدرة العين على الإحاطة به، واتسم بالعظمة - أقوى الدلائل على وجود الله.

ومن هذه الظواهر الكونية السماء - وقد ذكرت في القرآن الكريم ١١٨ مرة (مفردة ومعرفة) - ففي خلقها ما فيه من الآيات، أشار البيان الإلهي إلى بعضها، فهي مصدر الرزق والنعم، ومصدر العقاب والنقم. يديرها الله حسب مشيئته فتتقاد له - سبحانه - طائعة مسلمة، مثلها مثل جميع مخلوقاته ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ {فصلت: ١١}، وهي على عظمتها تعد من بعض من آياته: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِه} {الروم: ٢٥}.

ومن عظمتها أنه حلف بها قارئاً ذكرها بصفة إبداعها: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} {الذاريات: ٧}، أو بالكواكب والنجوم: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْوُجُوهِ} {البروج: ١}، و{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}، {١ الطارق: ١} أو ظواهر أخرى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ} {الطارق: ١١}.

ولا شك أن السماء من مظاهر الجمال والجلال في الكون: إذ تجمع بين جمال مرآها بصفائها وهدوئها، وامتدادها ولونها، وتزيئها بالسحاب، وبين جلالها في تلبدها وظهورها تحت ومضات البرق وانفجارات الرعد مبشرة بالرزق والخير، وبعدها وامتدادها الذي يتجاوز البصر.

وفي صدر السورة (الملك) تجلت السماء برهاناً ساطعاً على ربوبية الله، وميداناً قوياً للتحدي، بين الخالق - وهو القاهر - والعبد المخلوق: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {١} الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ} {٢} الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} {٣} ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} {٤} وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} {٥}

وتبين التفاسير الأبعاد المعنوية لهذا، ففي الآية الأولى: "يمجد الله تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك، أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل: لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: {وهو على كل شيء قدير}" (ابن كثير، إ، ١٩٩٨ م)، وتبارك: "تقدس ودام، فهو الدائم الذي لا أول لوجوده، ولا آخر" (القرطبي، م، ١٩٦٤ م) وأيضاً تبارك: "تعظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما يشاء" (السعدي، ع، ٢٠٠٠ م) وقد يلاحظ أن السورة افتتحت بصفتين من صفات الله، وكل صفة جامعة لصفات أخرى:

الأولى - (تبارك): التي دلت على مطلق التصرف بخلقه فله - سبحانه - ملك العالم السفلي والعلوي. ودلت على أزليته: فهو الذي لا أول لوجوده ولا آخر. وعلى تعظم الخير وتكاثره وعموم الإحسان. وهذا ينسجم مع الصفة الثانية - (بيده الملك): وجاءت بصيغة المصدر المعرف بأل ليدل على العموم: فبيده الملك كله ما عظم منه وما صغر، في السماء وما يعلوها وفي الأرض وما يدونها.

ووردت (بيده الملك) بصيغة (بيده ملكوت) في موضعين من القرآن الكريم، قال تعالى: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {المؤمنون: ٨٨} وقال: {قَسْبُحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {يس: ٨٣} ورأى بعض المفسرين أن "ملكوت" في اللغة هي الملك، ولكنه بكلام بلسان النبط (السيوطي، ع، ١٩٧٤ م، صفحة ١٣٩). أو هي ملك إلا أن فيه معنى المبالغة (النجاس، أ، ١٩٨٨ م، صفحة ٤٤٩). وقال د. فاضل السامرائي: "الملكوت: هي الملك مع العز والسلطان والعظمة، ولذلك قال البعض: إن ملكوت يشمل عالم الأمر والغيب، أي: الملائكة والغيب" (السامرائي، ف ٢٠١٥ م). وبالعودة إلى السياقات الثلاث التي وردت فيها (بيده الملك)، أو (بيده ملكوت) يُلاحظ أنها وردت مقترنة بالحديث عن خلق السماوات، إما قبلها كما في سورتي النور ويس. ^١ أو بعدها كما في سورة الملك، حيث ميدان التحدي.

وتدل لفظة (بيده) على التصرف والسيطرة. ولربما وجد مالك لشيء أو أمر ما، لكنه غير قادر على إدارته، أو يجهل ذلك، في حين أن الله مالك وقادر متصرف مدبر.

^١ - قال في سورة المؤمن: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} {٨٦} كما قال في {يس}: {الْوَلِيُّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} {٨١}.

ثم أردف الحديث عن هذه الصفات بخلق الموت والحياة: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} {٢}. خلق الحياة اختباراً لنا، وأوجد الموت والحساب، وربما بدأ بذكر (الموت والحياة) ليشير إلى أن كل شأن الإنسان متعلق بهذين الطورين، أو ليذكر الخصم بضعفه، ومآله.

وقد يلاحظ هنا أن الخطاب تجاوز مسألة الموت والحياة، وأقام التحدي على خلق السماوات! ولعل العودة إلى تجربة نبي الله إبراهيم مع النمرود تبين السبب^٢ ففي التفاصيل أن إبراهيم حضه على عبادة الله؛ لأنه هو وحده من يحيي ويميت، وذكر الإحياء والإماتة؛ لأتهما أعظم أنواع التدابير، فقال ذلك المحاج: "أنا أحيي وأميت!" فزعم أنه يفعل ذلك عندما يقتل شخصاً فيكون قد أماته، ويعفو عن آخر، فيكون قد أحياه! فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويراوغ انتقل معه إلى دليل يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر. (السعدي، ع، ٢٠٠٠م).^٣ وقد كان بإمكان الخليل مجادلته وتبيان أن ما قدمه ليس المقصود من الإحياء والإماتة، ولكن ذلك سيدخله في باب المغالطة والمراوغة -وهو ميدان السحرة والمشعوذين الذين يمارسون ادعاءاتهم على مخلوقات بين أيديهم- فعدل بحجته إلى ظواهر الكون، التي قد يكون من المستحيل المراوغة فيها. ولعل هذا يفسر العدول عن الموت والحياة في سورة (الملك) إلى خلق السماء لتكون ميداناً للتحدي.

ثانيًا: صلب الخطاب

مهد الخطاب القرآني للتحدي بذكر تفرد الله بصفة الملك، من خلال أسلوب القصر في قوله (بيده الملك) فالملك دل على السيطرة، و(بيده) دل على التصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقب لحكمه. والسيطرة والتصرف يتناسبان مع الحديث عن الأمور العظام كالموت والحياة، أو السماء، وهي "سبع سماوات"، وليست سماء واحدة كما قد يتوهم الناظر {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} {نوح: ١٥}. وكي لا يفهم أن هذه السماوات متصلة جاءت كلمة طباقاً فوضحت كيفية ترتيبها فيما بينها "أي: بعضها فوق بعض. والملتزم منها أطرافها" (القرطبي، م، ١٩٦٤م)

وإذا سبع سماوات خلقها الذي بيده الملك، خلقاً متقناً، رتبت فيما بينها؛ بحيث لا تؤثر سماء على التي تعلوها أو التي تدنوها، بل نظم المكان بينها، ولا يعلم إلا الخالق شكل السماوات الست التي تعلو السماء الدنيا، فكل ما وصل إليه الإنسان في دأبه نحو الاكتشاف لا يتعدى بعض أسرار السماء الدنيا. وهذه السماء -بل جزء منها- كفيل بإعجاز الخلق، فكيف إذا كانت سبع سماوات مرتبة ومتناسقة ومتكاملة في الغاية؟!

ولعل الميدان الذي يستطيع ابن آدم المناقشة فيه السماء الدنيا؛ ولذا فنظره وعلموه لا تتعداها، فإذا شك في قدرة من (بيده الملك) فلينظر في خلقها إن وجد فيه (تفاوت). ومعنى التفاوت: "أي هو مصطبغ مستو، ليس فيه اختلاف، ولا تنافر، ولا مخافة، ولا نقص، ولا عيب، ولا خلل" (ابن كثير، إ، ١٩٩٨م)، فهذه السماوات السبع التي رفعت بغير عمد نراها، ورتبت طباقاً. خلقت بلا عيب أو تنافر أو شذوذ، وعُبر عن هذه المعاني مجتمعة بكلمة (تفاوت)، وبتوشية بلاغية؛ وهي الالتفات من حديث الغائب -الذي ذكر فيه صفته، وعظائم خلقه- إلى المخاطب، يبدأ التعبير القرآني خطاب التحدي المباشر.

ولكن أتى للبصر أن يدرك السماوات السبع وهي مرتبة بعضها فوق بعض؟! ولذا يأمر الناظر المعاند المنكر أن يرجع البصر في السماء الدنيا كشاهد على إتقان ما علاها، ولا بد هنا من التساؤل عن سبب استعمال "البصر"، وليس "النظر". ومن دقة التعبير القرآني أنه يفرق بين كل لفظة وأخرى؛ لما لكل لفظة من فروق دلالية تميزها عن الأخرى؛ وبيان ذلك أنه استعمل النظر في قوله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ} {الأعراف: ١٩٨} فقيل: المراد بذلك المشركون، المكذوبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظرة اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك، وما يتوسمه المتوسمون فيك من الكمال والصدق، وهذا يشير إلى الفرق بين النظر والبصر؛ فالنظر قد يكون رؤية دون إدراك، أما البصر فيعني الرؤية مع الإدراك وإعمال العقل؛ ولهذا ذهب المفسرون الكرام في التفرقة بين المعنيين إلى نسبة النظر إلى الأصنام التي كان يعبدوها المشركون، إذ ركبت لهم أعين من جواهر، فتراهم كالناظرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن هذه الآلهة جماد لا تبصر، رغم

^٢ - {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {البقرة: ٢٥٨}

^٣ - ورد في (سيد طنطاوي، م، ١٩٩٨م) أنه كان في استطاعة إبراهيم -عليه السلام- أن يبين له أن ما يدعيه ليس من الإحياء والإماتة، لكنه أثر ترك باب الجدل والمحاور، وأتاه بحجة هي غاية في الإفحام: وهي أن الله سبحانه يأتي بالشمس من المشرق، وأنت تدعي أنك تملك الإحياء والإماتة، فأت بها أنت من المغرب، فما كانت النتيجة إلا أن غلب المحاج، وقهر وانقطع حجاجه.

أنهم صوروها على صورة الأدميين أو الحيوانات، فيظن الراي أنها حية، مع أنها جمادات لا حراك بها ولا حياة. (القرطبي، م، ١٩٦٤م) و (السعدي، ع، ٢٠٠٠م)

فالفرق واضح بين النظر والبصر؛ لأن الناظر قد ينظر وهو شارد الذهن فلا ينتفع من نظره، حتى إذا حضر الانتباه وأعمل العقل أصبح النظر بصراً. ومن هنا يفهم سبب استعمال لفظة (البصر) في التحدي؛ لأنها تدل على إعمال العقل الذي يجب أن يحضر لفهم الحجة.

والتعبير القرآني يطلب إلى المخاطب أن يرجع البصر، أي: يعاوده حتى يبلغ اليقين مما رأى، "أي: اردد طرفك على السماء، ويقال: قلب البصر في السماء، ويقال: اجهد بالنظر إلى السماء" (القرطبي، م، ١٩٦٤م). والغاية من هذا الإرجاع التيقن من خلو السماء من (الفطور)؛ وهي الشقوق. ووردت بلفظ الفروج في قوله تعالى: {أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} {ق: ٦}، والراجع أن معنى (الفطور) و (الفروج) الشقوق أو العيوب، قال ابن كثير في شرح الآية: "ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، أي: بل هو مصطحب مستو ليس فيه اختلاف، ولا تنافر، ولا مخالفة، ولا نقص، ولا عيب؛ ولهذا قال تعالى: {فارجع البصر هل ترى من فطور} (١٩٩٨م). ونفي التفاوت عن السماء ثم إردافه بنفي الفطور يدخل (الفطور) في جنس التفاوت، ولكن قد يكون الفطور أظهر أنواع التفاوت للبصر، خاصة وأنها فطور في السماء الدنيا المرئية. ولعل خلو السماء من أي نوع من النقص أو المخالفة أو العيوب هو أول أوجه جمالها؛ فإتقان خلقها شرط لجمالها، يقول صالح الشامي: "والسلامة من العيوب هي السمة الأولى التي يتفحص العقل وجودها في الشيء الجمالي؛ إذ هي نقطة الانطلاق في عالم الجمال والكمال". (الشامي، ص، ١٩٨٦م، صفحة ٢٢٤)

لكن هذا الإنسان الذي جبل على المكابرة ورفض آيات الله وتكذيب رسله {كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا} {١٦} قد لا يقنع بالنظرة وإرجاعها؛ ولذا يأتيه الأمر الواثق الذي لا يخالطه شك، وفي هذا المقام من الخطاب تتجلى ذروة التحدي وسنانه؛ فما من صانع يصنع عملاً إلا ويمكن أن يخالطه شك في عمله من ناحية ما. إذ دأبت العلوم والاكتشافات على إلغاء بعضها بعضاً، ونقد بعضها بعضاً نقداً يصل في كثير من الأحيان إلى حد التكذيب، فلا يجرؤ صانع أو مكتشف عاقل على تحدي البشر فيطلب إليهم مراجعة عمله، ولو فعلوا فلن يجدوا عيباً فيه، فالإتقان البشري قد يستمر لوقت، ولكن سرعان ما يفاجئنا الزمن باكتشاف يظهر عيوب تلك الصناعة أو خطأ تلك النظرية، أما التحدي المطلق فلا يصدر إلا عن الإله المبدع الممكن. ويرى اللغويون أنه قد يطلق لفظ المثني ويراد به الجمع، يقول الزمخشري مفسراً (كرتين):

التكرير بكثرة، كقولك: لبيك وسعديك؛ تريد إجابات كثيرة بعضها في إثر بعض... فإن قلت: فما معنى {ثم ارجع}؟ قلت: أمره يرجع، ثم أمره ألا يقتنع بالنظرة الأولى وبالنظرة الحمقاء، وأن يتوقف بعدها ويجمع بصره، ثم يعاود ويعاود إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة، فإنه لا يعثر على شيء من فطور (الزمخشري، ١٩٨٧م)^٤

ولاستخدام كرتين بدلاً من مرتين بلاغة لطيفة، قد تغيب عن الذهن، فالكر في أصل اللغة الرجوع، وتستخدم في أجواء الحروب، فيقال: كر على العدو إذا هجم، وقال تعالى في الحديث عن الحرب بين بني إسرائيل وأعدائهم: {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} {الإسراء: ٦}، فاستخدم الكرة بمعنى الرجعة بعد الهزيمة لانتزاع الغلبة. والتحدي ضرب من المغالبة بين طرفين خصمين، ولما عرض الله الحجة بخلق السماء، يعلم - وهو علام الغيوب - أن خصمه سهرزم وهو يكن الرغبة بانتزاع الغلبة، فقال: أعد الكرة، بما يشبه القول "كر ثانية" فالمولى يتيح له المجال بالكر مرات ومرات في تحدي مطلق، حتى يصل إلى نتيجة: {يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}، يقول سيد طنطاوي:

{ثم ارجع البصر كرتين}. تعجيز إثر تعجيز وتحد في أعقاب تحدٍ. أي: ثم لا تكتف بالنظر مرة واحدة، فربما يكون قد فاتك شيء في النظرة الأولى والثانية.. بل أعد النظر مرات ومرات.. فتكون النتيجة التي لا مفر لك منها، أن بصرك -بعد طول النظر والتأمل- ينقلب إليك خائباً وهو كليل متعب.. لأنه -بعد هذا النظر الكثير- لم يجد في خلقنا شيئاً من الخلل أو الوهن أو التفاوت. (طنطاوي، ١٩٩٨م)

وكدأب النص القرآني يستعمل الكلمات التي تتناسب مع الموقف، فالمعاند يقلب البصر في السماء عله يجد شقاً أو شرخاً؛ لكنه ينقلب، وتصور (ينقلب) الحالة النفسية لهذا الإنسان، فهو لا يألو جهداً للتغلب على الخصم، فيدقق ويكرر النظر، ظناً منه أنه سيحظى بالغلبة، فتأتي هذه الكلمة توصيفاً لحالته. فانقلب: انكب بمعنى رجع ونكص، وهي الحالة المعاكسة تماماً لحالة التبصر ورجع النظر.. فإصرار وعناد ومكابرة تدفع إلى التبصر ورجع النظر مرات ومرات، يعقبه (ينقلب) لتعبر عن الانكسار والنكسة، فلا شك أن الراجع لنظره ينتظر نتيجة تثبت موقفه، وتقوي رأيه، وهو لا يتوقع النتيجة السلبية له، بدليل أنه كلما نظر ولم يجد ضالته

^٤ - ينظر أيضاً (القرطبي، م، ١٩٦٤م)، و (ابن كثير، إ، ١٩٩٨م) (السعدي، ع، ٢٠٠٠م)

أصبر ورجع النظر، حتى إذا أعياه البحث (انقلب) بصره إليه بغير ما كان يطلبه، ووردت كلمة ينقلب بمثل هذا المعنى مقترنة بالخيبة في قوله تعالى: {لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُنَّهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ} {آل عمران: ١٢٧}°

وبما أن الخطاب خطاب تحد، والمتحدي ترك الحبل للخصم على غاربه كي يجرب ردوده، حتى إذا وقعت الغلبة للمتحدى حق له أن يصف فتور بصر خصمه بأقوى الأوصاف، فوصف البصر بـ {خاسئاً وهو حسير}، أي صاغر قليل، يقول القرطبي: أي: خاشعاً صاغراً متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك، يقال: خسئت الكلب، أي: أبعدته وطردته. وقال ابن عباس: الخاسئ الذي لم ير ما يهوى، وهو حسير، أي: قد بلغ الغاية في الإعياء، فهو بمعنى فاعل؛ من الحسور الذي هو الإعياء.. يقال: قد حسر بصره يحسر حسوراً، أي: كل وانقطع نظره من طول مدى، وما أشبه ذلك. (القرطبي، ١٩٦٤م).

فكلمة (خاسئ) من الألفاظ التي توصف بها عادة خسارة الخصم العنيد، فلو كان الخصم ملائماً مسايراً لاختلف وصف خسارته، أما وأنه لم يوفر جهداً في كسر خصمه فمن حق المتحدي أن يظهر غلبته وسطوته بما يشاء من أوصاف تصغره، وتوهن عزيمته. ولنعرف مدى قوة هذه الكلمة ننظر في ورودها في آيات أخرى: إذ وردت في وصف اليهود الذين عتوا عن أمر ربهم، فعاقبهم بأن قلمهم قردة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} {البقرة: ٦٥}°. وللمرء أن يتخيل مبلغ الإهانة للخصم عندما يوصف بصره بما وصف به القردة الخاسئون، ولعل ما جمع بين الطرفين هو المكابرة والمخالفة لأمر الله. وربما وجب التوقف على تفسير القرطبي لكلمة (حسير): "أي: كل وانقطع نظره من طول مدى أو ما أشبه ذلك"، فإذا امتد البصر في المدى طويلاً أصيب بالحسرة، ويصبح الحال أكثر حسرة عندما يتكرر النظر مع إلحاح نفسي على إيجاد أمر غير موجود، فلو كان ذلك البصر يبحث عن أمر تسلية أو رغبة في كشف علمي محاييد، ربما كان تعبته وإجهاده أقل، لكن عندما يصحب هذا البحث إلحاح وتعصب لفكرة ما، ثم يصدم بالفشل، يخسأ بصره ويحسر.

والسؤال الآن: لماذا تحدى الله الإنسان بسلامة السماء من الشقوق أو الفروج أو الخروق؟ لماذا لم يكن التحدي بتغيير لونها، أو اهتزازها أو ما شابه.. مما يمكن أن يصيب الأرض؟

تنفطر السماء وتتشقق - بأمر ربها - في حالة واحدة أخبر عنها القرآن الكريم، فأنبأ بانشقاقها: {وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَفِيَّ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} {الحاقة: ١٦}، و{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ} {الانشقاق: ١}، وانفطارها: {السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} {المزمل: ١٨}، و{وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} {الانفطار: ١}، وانفراجها: {وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ} {المراسلات: ٩}، وانفتاحها أيضاً بالقول: {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا} {النبا: ١٩}، فالانشقاق أو الانفطار أو الانفراج أو الانفتاح علامة على قيام الساعة، ونهاية الحياة الدنيا. وأي تصدع يصيب بناء السماء - والله أعلم - هو بداية النهاية. ومن هنا كانت سلامة بناء السماء من التصدع والفروج دليل السيرة الطبيعية لها؛ ولذا تحدى الصانع الأعظم الإنسان أن يجد هذا التصدع، أما حين يوجد التصدع فسيكون - كما أخبر القرآن وهو أصدق كلام - واضحاً جلياً لا يحتاج إلى إمعان النظر، ولا إلى رجوع البصر، بل يكون بداية لتحولات كبرى، هي آخر التحولات في هذه الدنيا. ولا بد من الإشارة إلى أن النص القرآني لم يصرح بذكر السماء الدنيا في الآيات (٣ و ٤)، إنما ذكر (سبع سماوات طباقاً) سليمة من التفاوت، ومع الافتراض أن بصر الإنسان وأجهزته لا تصل إلا إلى السماء الدنيا، يمكن الاستنتاج أن هذه الصفات هي صفات لها.

ثالثاً: دعم الخطاب:

بدأ الخطاب القرآني بجولة التحدي، وقدم لها، ثم خاض فيه، ليس للوصول إلى نتيجة، فهو - سبحانه - أعلم بمآل الأمور ومنتهاتها، ولكن ليثبت للإنسان الخصيم، دلائل قدرته، في خلق يعجز ذاك الإنسان إدراك عيب فيه مهما حاول. ومن عادة مواقف التحدي أن يسلم الخصم المغلوب لخصمه وينكسر أمامه، فهو موقف قوة وضعف، غالب ومغلوب، لا مكان فيه للمجاملة والمسايرة؛ ولذا بعد أن تظهر النتيجة، وتخف حرارة الموقف، يبدأ الغالب بدعم موقفه.

فبعد الحديث عن إتقان الصنع تعرض الزينة: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} {٥}، وهنا يصرح النص الإلهي بذكر "السماء الدنيا"، إما لأن المصابيح زينة وحماية لها فقط، وإما لأن السماوات شفافة، ويمكن أن يصل ضوء المصابيح إلى ما علا السماء الدنيا، أو ليدل على أن ما ذكر كان خاصاً بها فقط، أما بقية السماوات فهي في علمه وحده سبحانه.

وبعد أن نفى كل عيب عن هذه السماء تحدث عن زينتها، وهذا مبدءاً في المنظور الإسلامي للجمال الذي يرى أن الجمال هو الإتقان، فالشيء ينبغي أن يكون متقناً، أي: مؤدياً وظيفته على أكمل وجه وبأبهى حلة، فلا يكون النفع بلا جمال، ولا يكون الجمال بلا

° - وردت بمعنى الردة في قوله تعالى: {وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} {آل عمران: ١٤٤}

٦ - وكذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} {الأعراف: ١٦٦}

فائدة، بل يكمله ويكمل به، فخلقت السماء، ثم زينت بمصابيح؛ وهي الكواكب. وسميت الكواكب مصابيح لإضاءتها، فكان لهذه المصابيح إضافة إلى الزينة. فائدتان: حماية السماء من تناول الشياطين، وعلامات يهتدى بها على الأرض. قال قتادة: "إن الله - جلّ ثناؤه - خلق هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء الدنيا، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها". (الطبري، م، ٢٠٠٠م) وبالعودة إلى ميدان التحدي لا بدّ من الوقوف على ذكر الكواكب المضيئة يقول السعدي في تفسير (المصابيح): "وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم لكانت سقفاً مظلماً، لا حسن فيه ولا جمال"، وقال تعالى في موضع آخر: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ} {الصافات: ٦}. (٢٠٠٠م) فلو لم تكن السماء مضاءة بالمصابيح لما تمكن الإنسان من النظر إليها والتبصر فيها، وهو ما يدل على اكتمال ميدان التحدي بإثارة السماء (موضوع التحدي) بالمصابيح يقول الإمام الرازي: علم أن هذا هو الدليل الثاني على كونه -تعالى- قادراً عالمًا؛ وذلك لأن هذه الكواكب نظرًا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار معين، وموضع خاص، وسير معين، تدل على أن صانعها قادر، ونظرًا إلى كونها محكمة متقنة، موافقة لمصالح العباد، ومن كونها زينة لأهل الدنيا، وسبباً لانتفاعهم بها. تدل على أن صانعها عالم (طنطاوي، م، ١٩٩٨م) وهذا دلت النجوم على صفتين من صفات الله تعالى، وهما: القدرة والعلم، وتجمعان في كلمة الملك.

أما الفائدة الثانية- فهي الحفظ من أذى الشياطين، وتعليل ذلك أن أي صرح أو بناء محكم لا بد أن تتوافر له وسائل السلامة والحماية، وهذا أمر معتاد في صناعة الإنسان، بيد أن البديع هو أن تكون الزينة هي ذاتها وسيلة الحماية، قال تعالى في سورة أخرى: {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} {فصلت: ١٢} فكانت فائدة النجوم زينة السماء، ومنع الشياطين من الاقتراب واستراق خبرها، إذ تمردت على الله، وتلقفت الأخبار من السماء لتضل عباده بها، يقول تعالى على لسانهم: {وَأَنَّا كَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا} {٨} {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} {الجن: ٩}؛ هذه الشهب خلقت كي يرمى بها كل من يحاول الاقتراب واستراق السمع. وبذلك يكمل المشهد بإحاطة الميدان بكل ما يقتضيه من سلامة من العيوب، وزينة، وحراسة. وبنبرة التحدي الصارمة ذاتها يتحدى الله مخلوقاته من جن أو إنس أن يستطيعوا اختراق حجب السماء في موضع آخر من القرآن الكريم: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} {الرحمن: ٣٣}؛ لا يدع الخطاب القرآني مجالاً للتفكير بالنفاذ من أقطار السماء، تأكيداً على ضبط خلقها ضبطاً تاماً. فلو تمكنت الشياطين من اختراق الحجب والوصول إلى أخبار السماء لكان هذا عيباً، وقد نزه الله خلقه عن العيب (تفاوت). فكانت الآية (٥) تكملة للتحدي.

وإذا كانت السماء بنيت على هذه الطريقة المحكمة، ورفعت بلا عمد مرثي: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...} {الرعد: ٢}؛ فهي مجال مناسب للظواهر الكونية الأخرى: البروق والرعود والسحب. وأمن للمخلوقات الأخرى، التي تعد وجهها من أوجه الدلالة على وجود الله ومكملة لتحدي خلق السماء، وهي الطيور التي تسبح تحت السماء الدنيا، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} {١٩}؛ فبعد جولة التحدي الصارمة تخفف النبرة بعرض الأدلة على هذا المخلوق المنكر، ويعود الخطاب الإلهي لميدان السماء فيذكر الطير، يقول السعدي: "وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيّان وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها". (٢٠٠٠م) فالطير السابحة في السماء واحدة من دلائل عظمة قدرته بطريقة طيراتها في السماء (صافات). واطمئنانها في جوها، ثم العجز عن التحكم بها إلا من قبل الرحمن، وقد يكون هذا نتيجة إحاطة السماء بالنور والأمان.

رابعاً: التحقيق العلمي:

لا يحتاج المسلم إلى براهين علمية ونظريات تطبيقية كي يوقن بألوهية الله - سبحانه - فالإيمان اعتقاد فطري يتبناه القلب، وتصدقه الجوارح، والأدلة على ربوبية الله وألوهيته في نفس المسلم وفيما حوله أكثر من أن تحصى، يقول حمزة رستنوي: "وبرهان العقائد والأديان و"الرسالات" ليس في علميتها أو إمكان اختبار تصوراتها تجريبياً، بل برهانها في اختبار صلاحيتها لتحقيق تنمية فردية ومجتمعية مستدامة، توظف العلم بشكل إيجابي، ولكنها لا تراحمه". (رستنوي، ٢٠١٤م، صفحة ١١)

وليس من مقاصد هذه الدراسة الخوض في أهلية مباحث الإعجاز العلمي، وعرض حجج المؤيدين أو المعارضين-فهذا باب واسع ألف فيه كثير بين مؤيد ومعارض- بل ستم الإفادة منها، بما يخدم اتجاهها القائم أساساً على دراسة أسلوب التحدي في هذه السورة خاصة، و في أسلوب الخطاب القرآني عامة، وبما أن التحدي في خلق (السماء) وهي موضوع العلوم الفلكية التي تطورت تطوراً بعيداً، حتى وقف الإنسان على كثير من الحقائق التي كانت مجهولة يوم أنزل الله القرآن الكريم، فقد يكون من التقصير إهمال الجانب العلمي لهذه المسألة، يضاف إلى ذلك - وهو الأهم - أن الخطاب موجه للإنسان أي إنسان، والبشر متفاوتون في علومهم

واعتقادهم، فقد يأتي من يقول: بعد التطور العلمي وغزو الفضاء، قد يكتشف الإنسان ما يخالف مضمون هذه الآيات؛ وهو خلو السماء من العيوب، وإنارتها، وحراستها بالكواكب... فتطور العلم واستخدام أجهزة الرصد، وغزو الفضاء بالسنن الفضائية والأقمار الصناعية العابرة للأفاق، قد يأتي بغير ما أتت به نظرة العين حتى لو أرجعت البصر ما شئت أن ترجع، وهذا ما يلزم البحث أن يعرض الرأي العلمي في هذه المسألة عرضاً معتدلاً يتناسب وهدفه الأدبي بعيداً عن الغلو، وعن الغوص في التأويلات العلمية البعيدة. ويشتمل التحدي في خلق السماء في هذه السورة على ثلاثة جوانب:

١. السلامة من العيوب:

ذكر البحث أن الخطاب القرآني بدأ بتأكيد السلامة من التفاوت (العيوب)، ومنها (الفطور). وثبت العلم يوماً بعد يوم دقة بناء السماء، وضبط حركة الكواكب ضبطاً يجعل أي خلل يؤدي إلى كوارث مهما كان بسيطاً، وما ثقب (الأوزن) ببعيد. ومن هذا المنطلق يكون التحدي بخلق السماء تحدياً بما لا طاقة للإنسان به، ولا حاجة أن نذكر هنا أن معنى السماء هو كل ما يظل الإنسان، بمعنى كل ما يعلو الأرض من مظاهر الكون.

ويرى سمير عبد الحليم أن السماء سقف محفوظ، ثم يتساءل: لماذا قال الله تعالى: {والسماوات ذات الرجوع}، وليس السماء ذات المطر؟ ويفسر ذلك بأن السماء ترجع أشياء كثيرة، وليس المطر وحده، فالغلاف الجوي طبقات^٧، وكل طبقة مهمتها إرجاع ما يصعد إليها من الأرض، أو ينزل إليها من الأعلى، فتعمل بذلك على إرجاع ما ينفع الأرض إليها، أو إرجاع ما يضرها عنها (عبد الحليم، س، ٢٠٠٠م، الصفحات ٤٦-٤٧). ويقف النابلسي في موسوعته عند قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} {الملك: ٣}، ثم يعدد تلك الطبقات بما يوهم الخلط بين السماوات السبع وطبقات الغلاف الجوي، لكن الراجح أن الغلاف الجوي هو ما يحيط بالسماء الدنيا، أما السماوات الست فلم يصل العلم إلى معرفة شيء عنها (والله أعلم).

ويعدد النابلسي تلك الطبقات شارحاً أهمية كل طبقة في حفظ الأرض والحياة عليه، ويقف عند قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا} {٣٢} فينقل قول بعض العلماء: "إن الجو الأرضي حاجز حقيقي، هو حقاً قليل الكثافة، ولكنه سميك جداً، فهو يوقف الأشعة، ويحرق الشهب، إنه يحيي حياتنا الدنيوية، ويحافظ عليها؛ لأنه لا يسمح إلا لكل ما هو نافع لنا بالوصول إلى الأرض" (النابلسي، ٢٠٠٥م، صفحة ٤/٢).

وبالرجوع إلى الآيات ٣ و٤ التي تحدى بها الخالق عباده أن يبصروا فهل يجدوا فطوراً؟ إذ لو وجد خلل ما أو ضعف في طبقة من الغلاف الجوي لحصلت كوارث: فلو ثقت الطبقة الأولى مثلاً لربما ضاع جزء كبير من بخار الماء في الفضاء بدلاً من أن يتكاثف ويصبح مطراً... ولو ثقت الطبقة الثانية لأدى هذا إلى تسرب الأشعة فوق البنفسجية الضارة، كما حصل ثقب (الأوزون) -بفعل الإنسان- فآدى الخلل في هذه الطبقة إلى اضطراب في المناخ تشهده الأرض، وإلى ظهور كثير من الأمراض للإنسان. ويتحدث عبد الدائم الكحيل في موسوعته عما أسماه العلماء بـ (الثقوب السوداء) قبل أن يكتشفوا أن هذه الثقوب ليست إلا أجساماً شديدة الاختفاء، تجري بسرعات عالية، وتجذب كل ما تصادفه وتبتلعه. وهذه الصفات الثلاث للثقب الأسود عبر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة التكوين: {قَلَّا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ {١٥} الْجَوَارِ الْكُنُوسِ} {١٦}، فهي خنس، أي: شديدة الاختفاء. ولذلك اعتقد أنها ثقوب في صفحة السماء قبل أن تظهر حقيقتها؛ بأنها نجوم كبيرة ذات جاذبية عظيمة، لدرجة أنها لا تسمح للضوء بمغادرتها؛ ولذا لا يمكن رؤيتها (الكحيل، ٢٠١٨، الصفحات ١١٤-١١٥) ويطول الحديث عن طبقات الغلاف الجوي المحكم، الذي أثبتت الحقائق العلمية إتقان صنعه. وهو ما يتطابق مع ما ورد في الآيات.

٢. زينة السماء:

أخبر المولى -عز وجل- أنه زين السماء بمصابيح (آية: ٥)، وفسرها السعدي بالنجوم، فقال: "وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم لكانت سقفاً مظلماً، لا حسن فيه ولا جمال". (السعدي، ٢٠٠٠م) أما التفسير العلمي لهذا فهو أن الكون مظلم ظلاماً شديداً إلا في الجزء الموجه للشمس، وهو ما يعادل نصف الأرض تقريباً، وهذا النور ينتقل بين جزئي الأرض بحسب حركة الأرض حول نفسها. وقد كان الناس يظنون أن الكون مضاء، ولكن بعد زيادة الفضاء

^٧ - يعرض الكاتب تلك الطبقات:

الطبقة السفلى - وهي ترجع بخار الماء المتصاعد من الأرض، وتعيده مطراً.

الطبقة الرابعة والخامسة والسادسة - ترجع إلى الأرض موجات الراديو الطويلة وبعض الموجات القصيرة القادمة من الأرض، كما ترجع ذات الموجات إذا جاءت من السماء بالاتجاه المعاكس.

الطبقة السابعة أو الحزام المغناطيسي - وهي ترجع إلى الفضاء الخارجي الإشعاعات الكونية والفوق بنفسجية القاتلة، والقسم الأكبر من أشعة ما تحت الحمراء وألفا وغاما، وهذا بفضل طبقة الأوزون التي تعد بمثابة حجاب حصين للأرض؛ ولذلك تتعرض الأرض مؤخراً لكثير من الظواهر الكارثية والأمراض بسبب ما تتعرض له هذه الطبقة من ثقوب. (عبد الحليم، س، ٢٠٠٠م، الصفحات ٤٦-٤٧)

فوجئ الإنسان بحقيقة أن الكون يغشاها الظلام الدامس في غالبية أجزائه، وأن حزام النهار في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس بطبقة رقيقة، وهذه الطبقة الرقيقة التي يعمها ضوء النهار هي التي تحجب عنا ظلام الكون خارج حدود أرضنا، ونحن في وضوح النهار، فإذا جن الليل وانسلخ منه النهار تحركت تلك الطبقة إلى الجزء الآخر من الكرة الأرضية؛ لتفصل الظلام عن ذلك الجزء، ويتصل ظلام الكون بالنصف الذي تركته. (المصلح، ع: الصاوي، ع، ٢٠٠٨م، صفحة ١٦٧) وأصبحت هذه المعلومات من حقائق مشهودة إذ: شهد جميع رواد الفضاء بظلام السماء بعد مغادرة الغلاف الجوي للأرض، وهذا الظلام هو دائم في السماء بالرغم من وجود ضوء الشمس والنجوم، وهذا يفسر أن الضوء لا يرى بذاته، ولكنه يرى بالانعكاس على ذرات الهواء الموجود في الغلاف الجوي، ونظرًا لعدم وجود الهواء في الفضاء، فالضوء لا يجد شيئًا ما يعكسه. (عبد الحليم، س، ٢٠٠٠م، صفحة ١١)^٨

ولعل هذا يؤكد للملحدين والمكذابين أن ما نزل به القرآن صدق، وأن ما تحدى به الله هو الحق، وما دعم به التحدي لهو عين الحقيقة العلمية، ولا ينبغي لكتاب ديني أن يشرح طبقات الغلاف الجوي كما فعلت كتب العلم، إنما هي إشارات اكتفي بها بمثل قوله تعالى عن ظلمة الفضاء وإضاءتها بالكواكب "مصايح"، فلو لم تكن ثمة ظلمة في هذا الكون لما احتيج إلى المصايح، وبذلك يكون ذكر المصايح في هذا الخطاب الأدبي يشير إلى الحقائق العلمية التي تجزم بظلام الكون، ثم إضاءته بالكواكب.

٣. حماية السماء:

ذكر الخطاب القرآني "المصايح" التي تعمل على إنارة الفضاء وزينتها -كما سبق وعرضت الدراسة- ثم ذكر مهمة أخرى؛ وهي حماية السماء من تطفل الشياطين، وتعدّهم لحجاب السماء. فشكّلت تلك المصايح حصنًا حصينًا، كما ذكر في أكثر من موضع في كتاب الله؛ في فصلت: {وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} {فصلت: ١٢}، وفي الصافات: {إِنَّا رَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِرِزْنٍ الْكَوَاكِبِ} {٦} وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ {٧} لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ {٨}، وفي "الجن" يقول على لسانهم: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا} {٨} وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ لِلْسَّمَاءِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا} {٩}. وبالمقارنة بين هذه النصوص يمكن أن نلاحظ أن تلك الأجسام الفضائية وردت باسم: المصايح، أو الكواكب، أو الشهب، ما قد يؤدي إلى الاستنتاج أنها الشهب المضيفة التي يمكن مشاهدتها في ليلة مظلمة. وللعلم في تكوينها وعملها وتفسيرات^٩، ويذكر العلماء وجود هذه الأجسام في الغلاف الجوي مكونة ما يشبه الحصن للأرض يقول عبد العليم خضر:

إن تلك المجموعة الغريبة من الأجسام الصغيرة، التي تنتشر كبحر بلا حدود بين كوكبي المريخ والمشتري. تستحق منا بعض المناقشة والتأمل. وهذه العائلة من الكويكبات أطلق عليها علماء الفلك اسم (وباء السماء) عندما ضاقوا ذرعًا بها، بسبب ما أحدثته لهم من مضايقات أثناء عمليات تصوير الأجرام السماوية البعيدة (١٩٨٦م، صفحة ٢٠٨)

وقد شرحت سورة الجن ما أوجزته سورة الملك من الحديث عن مهمة هذه الكواكب؛ إذ أخبرت على لسان الجن، بأنهم صعدوا إلى السماء فوجدوها ملئت حرسًا وشهبًا، ولكن بعد اليوم (بعد نزول الوحي على رسول الله) من يصعد لاستراق السمع من الملأ الأعلى سيفاجأ بشهب يحرقه؛ لأن الجن كانت تستخدم تلك المعلومات فيما يؤدي الإنسان، قال ابن كثير في تفسير الآية:

وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها؛ ذلك لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن، فيلقوه على السنة الكهنة، فيلبس الأمر، ويختلط، ولا يدري من الصادق، وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز؛ ولهذا قال الجن (الآية)، أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهبًا، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يحرقه، ويهلكه.

(١٩٩٨م)

واختصرت هذه المهمة بوصف الكواكب (برجوم للشياطين)، فهي جند مجندة لحماية السماء، وكلمة رجوم تبين طريقة الحماية، وهي رجم الشياطين، فالرجوم "جمع رجم، وهو في الأصل مصدر رجمه رجما -من باب نصر- إذا رماه بالحجارة، فهو اسم لما يرمي به الرامي غيره من حجر ونحوه" (طنطاوي، م، ١٩٩٨م)، ولعل هذا يعيدنا ثانية إلى المعلومات الفلكية التي أكدت أن تلك الشهب هي صخور نيزكية تسخن نتيجة احتكاكها بجزيئات الهواء في حركتها فائقة السرعة نحو الأرض، لكنها نتيجة لهذا الاحتكاك تحترق

٨ - ينقل (النابلسي، ٢٠٠٥م، صفحة ٥/٢) قول أحد رواد الفضاء حين صعد إلى مركز إطلاق المراكب الفضائية: "لقد أصبحنا عميًا لا نرى شيئًا"، رغم أن مركبته أطلقت في وضوح النهار، ويفسر النابلسي هذا تفسيرًا علميًا بانعدام تناثر ضوء الشمس في المنطقة التي تلي الغلاف الجوي، وهو ما يعني الظلام الدامس.

٩ - يقول (خضر، ع، ١٩٨٦م، صفحة ٢١١): "ينتج ضوء الشهب بواسطة الصخور النيزكية التي تكون دائرة حول الشمس قبل دخولها جو الأرض، فعندما تدخل بسرعة قدرها ٣٠ كم كل ثانية، تسخن عن طريق الاحتكاك بجزيئات الهواء، ويمكن لهذا التسخين أن يصهر أو يبخر الصخر، والغالبية العظمى من النجوم ذات الذنب تنتج عن نيزكيات لا تزيد عن حصا حبيبات من الرمل تتبخر كلها، ولا تصل إلى الأرض إطلاقًا... والتصادم بين النيزكيات وجزيئات الهواء يسبب أيضًا تسخين الهواء المحيط. وهذا الغاز الساخن يشع ضوءًا كالذي نراه من الشهب".

وتتبخّر، ولا تصل إلى الأرض. (خضر، ع، ١٩٨٦م)، وهذه القدرة على الاشتعال تجعل منها قنابل موقوتة جاهزة لضرب أي هدف بأمر الله. وهذا التفسير العلمي لكلمة (رجوم). والله أعلم.

لكن ثمة من توسع، فجعل مهمة هذه الكواكب تشمل الأرض إضافة إلى حماية السماء، وذلك بالعودة إلى المعنى اللغوي لكلمة شيطان كما وردت في "لسان العرب": "والشيطان معروف، وكل عات متمرّد من الجن والإنس والدواب شيطان". (ابن منظور، م، ١٩٩٣م، صفحة ٢٣٨/١٣) وبناء على هذا التعريف يمكن أن يشمل الشيطان مذنبًا، وهو من الظواهر الخطيرة التي يمكن أن تتعرض لها الأرض فتحدث دمارًا شاملاً، واكتشف علم الفلك الآلية التي تتم بها حماية الأرض من أخطار النيازك، وذلك عن طريق اصطدامها بالكواكب الأخرى قبل وصولها إلى الأرض، ومن هذه الكواكب كوكب المشتري؛ لأن:

كوكب المشتري هو أكبر كواكب المجموعة الشمسية، وتبلغ كتلته ٣١٨ ضعف كتلة كوكب الأرض. ولولا وجود كواكب المجموعة الشمسية لزادت احتمالية اصطدام هذا المذنب وغيره بكوكب الأرض. ويُشبه العلماء كوكب المشتري بمكنسة شفط كونية؛ إذ إن احتمال اصطدام المذنبات بكوكب المشتري تبلغ ٢٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ مرة أعلى من احتمال اصطدامها بكوكب الأرض.. أي: أن كوكب المشتري يحفظ الكرة الأرضية من الدمار (كتاب، ح، ٢٠١٢م)

وبهذا تقوم الكواكب بحماية السماء ممن يفكر في الصعود إليها، وتحمي الأرض مما قد يتجه إليها، وبالعودة إلى موسوعة الكحل: نجد أن الثقوب السوداء، وهي أجسام شديدة الاختفاء تجري بسرعات عالية، وتجذب كل ما تصادفه وتبتلعه، وهي (الجواري الخنس). (١٠١٨م) وهذا يعني أن (الثقوب السوداء) ما هي إلا كواكب قد تغري كل ما يقترب منها ثم تبتلعه.

ولعله في هذا العرض الموجز للتفسير العلمي استطاع البحث توضيح أهمية التفسير العلمي في دعم خطاب التحدي الأدبي. وأن هذا الخطاب لا يمكن أن يعالج الأمور الظاهرة دون الباطنة، ولا الآنية دون الدائمة، فيكون تحديًا كلاميًا ومعنويًا، يشمل دقائق خلق السماء وسلامتها وإحاطتها بالزينة والحماية، وهو تحد لبصيرة الإنسان مهما بعدت في اكتشافاتها، وتعمقت في أبحاثها، فيلتقي في هذه الآيات الخطاب الأدبي التحقيق العلمي.

الخاتمة:

لعل الدراسة استطاعت الوصول إلى ما رمت إليه، فوقفت على خطاب التحدي في سورة الملك، بوصفه ظاهرة أسلوبية بارزة في صدر هذه السورة، تستند إلى نص مكتمل له مقدمة ومتن وخاتمة. فوقفت عليها جميعًا، وناقشت اختيار الألفاظ ونظم الكلام؛ للتعبير عن معنى التحدي، والتأثير على المخاطب، ثم دعم ما تحدى به الخطاب بالتحقيق العلمي؛ فوقفت على نتائج الدراسات العلمية التي تثبت ما عرضه النص القرآني. ولعل النتائج التي تم التوصل إليها يمكن تلخيصها في الآتي:

١. شكلت الآيات الأولى (حتى آية ٥) موقفًا كلاميًا مكتمل العناصر؛ بالتمهيد ثم بصلب الموضوع ثم بختمه بما يدعمه.
 ٢. كان للمقدمة كبير الأثر في التمهيد للموضوع بما يشبه الإحماء قبل دخول المضمار، فركزت على الصفة التي تجسد خلق السماء والتحكم فيها؛ وهي صفة (الملك).
 ٣. بينت الدراسة سبب عدم جعل الموت والحياة موضوعًا للتحدي، والانتقال منه إلى موضوع آخر؛ وهو خلق السماء وسلامتها.
 ٤. لم تترى الدراسة كثيرًا عند خلق السماء تبعًا لمسار الموقف الذي اقتضى عرض ذلك الأمر -على عظمتها وخطورتها- عرضًا سريعًا للنفاذ إلى صلب التحدي.
 ٥. ناقشت الدراسة عدد السماوات وكيفية ترتيبها في الوجود (طباقًا) كما ورد في الآية.
 ٦. وقفت الدراسة على النقطة الفصل في موضوع التحدي؛ وهي خلو السماء من الفطور. وأمر الله تعالى للإنسان أن يحاول ما حاول اكتشاف عيوب... والأسلوب اللفظي والنفسي لهذا التحدي، وأثر كل كلمة على سياق الجملة، وعلى مقام الحديث.
 ٧. نزل الحديث عن قمته، وخفت نبرته بعد وضوح النتيجة، وانتقل من التحدي وانتظار ردة فعل الخصم إلى دعم الحجة بما يلزم.
 ٨. كان للكواكب التي زينت بها السماء مهام أخرى: من حماية أهل السماء، وهداية أهل الأرض.
 ٩. لم يكن هذا التحدي حديثًا أدبيًا عابرًا يسلم له إنسان تلك العصور، ويرفضه إنسان الاكتشافات وريادة الفضاء، بل عززت تلك الاكتشافات ما جاءت به الآيات.
 ١٠. التقى التعجيز الأدبي الإعجاز العلمي في هذه الآيات، وهذا يثبت صلاحية الخطاب القرآني لكل زمان ومكان.
- هذه أبرز النقاط التي توصلت إليها الدراسة، ولعل كل ما ورد فيها محاولة للوقوف على أسرار الخطاب القرآني عامة من خلال خطاب التحدي، وما هيئ له واختير من الحجج العقلية والعلمية... والله أعلم.

المراجع:

١. خضر، ع، (١٩٨٦م) الطبيعيات والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، ط١. جدة- الدمام، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
٢. رستناوي، ح، (٢٠١٤م) الإعجاز العلمي تحت المجهر، ط١. نسخة الكترونية: دار الكتب. تم الاسترداد من <https://books-library.online/free-337574421-download>
٣. الزمخشري، م، (١٩٨٧م) الكشف في غوامض التنزيل، ط٣. بيروت، دار الكتاب العربي.
٤. السامرائي، ف، (٢٠١٥م) لمسات بيانية، يورة (يس). (محمد خالد، المحاور) الشارقة، تم الاسترداد من <https://www.youtube.com/watch?v=onQEWEzMsYM>
٥. السعدي، ع، (٢٠٠٠م) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط١، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحي. مؤسسة الرسالة.
٦. سيد طنطاوي، م، (١٩٩٨م) التفسير الوسيط للقرآن الكريم. القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٧. السيوطي، ع، (١٩٧٤م) الإتقان في علوم القرآن. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٨. الشامي، ص، (١٩٨٦م) الظاهرة الجمالية في الإسلام، ط١. بيروت، دمشق، المكتب الإسلامي.
٩. الطبري، م، (٢٠٠٠م) تفسير الطبري، تح: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة.
١٠. عبد الحليم، س، (٢٠٠٠م) الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني، ط١. دمشق- بيروت، مكتبة الأحياء.
١١. عمر، أ، (٢٠٠٨م) معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١. القاهرة، عالم الكتب.
١٢. القرطبي، م، (١٩٦٤م) تفسير القرطبي، ط٢، تح: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش. القاهرة، دار الكتب المصرية.
١٣. كتاب، ح (٢٠١٢م) الإعجاز العلمي في تفسير القرآن الكريم - وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا - سورة فصلت. تم الاسترداد من موقع فصلت: <https://fussilat.org/2012/03/09/>
١٤. الكحيل، ع، (٢٠١٨م). الكحيل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ج١٤.
١٥. ابن كثير، إ، (١٩٩٨م) تفسير ابن كثير، ط١، تح: محمد حسين شمس الدين. بيروت، دار الكتب العلمية.
١٦. المصلح، ع & الصاوي، ع، (٢٠٠٨م) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ط١. جدة، دار الإحياء للنشر والتوزيع.
١٧. المناصرة، ع، (٢٠٠٧م) الخطاب الأدبي في القرآن الكريم والسؤال الغائب. تم الاسترداد من موقع مداد: <http://www.wata.cc/forums/showthread.php?99641>
١٨. ابن منظور، م، (١٩٩٣م) لسان العرب، ط٣. بيروت، دار صادر.
١٩. النابلسي، محمد راتب، (٢٠٠٥م) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ط٢. دمشق، الحلبيوني-جادة ابن سينا، سورية، دار المكتبي.
٢٠. النحاس، أ، (١٩٨٨م) معاني القرآن، ط١، تح: محمد علي الصابوني. مكة المكرمة، جامعة أم القرى.

Speech Confrontation in the Initial Verses of Surat Al-Mulk (Creation of Heaven)- a Study in Speech Style

Futaim Ahmed Danawer

University of Taif- KSA
ftaimdanawer@gmail.com

Abstract: The Qur'anic discourse is unique in a style for its verbal, contextual, and meaningful characteristics that makes it a miraculous speech, which is distinguished from the human style of speech. This is what the study has achieved. The study examined the discourse of the initial verses of Surat 'Al-Mulk', an analytical description that shows the extent of its cohesion and strength. Since speech confrontation is complete, the study discussed its stages in verses from the beginning till the end. The study examined the theme and style of the introduction, and its impact on the content. Turing to the content, the study then discussed the rigidity of the speech, its confidence, its theme, and its impact on the addressee's soul and mind. The study ends with a discussion of the accessories of the manufacture of "heaven" such as decoration and protection.

Since the subject of 'creation of heaven' is one of the most important aspects of astronomy, this requires a comparison with the findings of this science without any prejudice to the literature of the discourse. The study concludes that the contents of the verses do not contradict the findings of astronomy.

Keywords: confrontation; speech; property; heavens ;lamps; style.

References:

- [1] 'bd Alhlym. S, Almwswh Al'lmh Fy Alajaz Alqrany, T1. Dmshq- Byrwt, Mktbt Alahbab, (2000m)
- [2] 'mr. A, M'jm Allghh Al'rbyh Alm'asrh, T1. Alqahrh, 'alm Alktb, (2008m)
- [3] Khdr. ', Altby'yat W Alajaz Al'lmh Llqrân Alkrym, T1. Jdh- Aldmam, Aldar Als'wdyh Llnshr Wlwtzy', (1986m)
- [4] Alkhyl. ', Alkhyl Lla'jaz Al'lmh Fy Alqrân Walsnh, J14, (2018m)
- [5] Ktab. H Alajaz Al'lmh Fy Tfsyr Alqrân Alkrym- Wazayânâa Alsâmâ'a Aldûnyâ Bimaşābīha WaḥīfZaḥā - Swrī Fsl, (2012m)
- [6] Abn Kthyr. A, Tfsyr Abn Kthyr, T1, Th: Mḥmd Ḥsyn Shms Aldyn. Byrwt, Dar Alktb Al'lmh, (1998m)
- [7] Almnaşrh. ', Alkhṭab Aladby Fy Alqrân Alkrym Walswā Alghayb, (2007m)
- [8] Abn Mnzwr. M, Lsan Al'rb, T3. Byrwt, Dar Ṣadr, (1993m)

- [9] Almslh. ' & Alsawy. ' , Alaj'jaz Al'Imy Fy Alqrân W Alsnt, T1. Jdh,Dar Alahya' Llnshr W Altwzy', (2008m)
- [10] Alnablsy. Mhmd Ratb, Mwswt' Alaj'jaz Al'Imy Fy Alqrân W Alsnt, T2. Dmshq, Alhlbwly-Jadh Abn Sna, Swryt, Dar Almkty, (2005m)
- [11] Alnhas. A, M'any Alqrân, T1, Th: Mhmd 'la Alsabwny. Mkh Almkrmh, Jam't Am Alqra, (1988m)
- [12] Alqrty. M, Tfsyr Alqrty, T2 , Th:Ahmd Albrdwny, Abraham Atfys. Alqahrh, Dar Alktb Almsryh, (1964m)
- [13] Rstnawy. H, Alaj'jaz Al'Imy Tht Almjhr,T1. Nskht Alktrwnyh: Dar Alktb, (2014m)
- [14] Als'dy. ' , Tysyr Alkrym Alrhmny Fy Tfsyr Klam Almnay, T1, Th: 'bd Alrhmny Bn M'la Allwyhq. Mwss't Alrsalh, (2000m)
- [15] Alsamrayy. F, Lmsat Byanyh, Ywrh (Ys). (Mhmd Khald, Almhawr) Alsharqh, (2015m)
- [16] Alshamy. S, Alzahrh Aljmalyh Fy Alaslām,T1. Byrwt, Dmshq, Almkty Alaslāmy, (1986m)
- [17] Syd Tntawy. M, Altsyr Alwsyt Llqrân Alkrym. Alqahrh, Dar Nhdt Msr Llṭba'h Walsnhr Wāltwzy', (1998m)
- [18] Alsytwy. ' , AlajTqan Fy 'lwm Alqrân. Alqahrh, Alhyyh Almsryh Al'amh Lktb, (1974m)
- [19] Altby. M, Tfsyr Altby, Th: Ahmd Mhmd Shkr. Mwss't Alrsalh, (2000m)
- [20] Alzmkhshry. M, Alksḥaf Fy Ghwamḍ Altnzyl, T3. Byrwt, Dar Alktāb Al'rby, (1987m).